طريق العدالة

٤

•

المسئول الأول

الناس يتساءلون : من ذا الذي يحقق لهم العدالة ؟ أهو الراعي أم هي الرعية أم هما معاً ؟ أما عبدالملك بن مروان فكان يرى أن تبدأ الرعية بالطاعة العمياء والانقياد الذليل ، وطلبت الرعية في عهده العدل فظنها عبدالملك لا تستحقه ، ثم كان يقول : أنصفونا يامعشر الرعية ! تريدون منا سيرة أبي بكر وعمر ، ولا تسيرون فينا ولا في أنفسكم بسيرة رعية أبي بكر وعمر ؟ نسأل الله ان يعين كلاً على كل [٢٠٨]

كان هذا رأي عبدالملك . أما عمر بن عبدالعزيز فرأى ان يبدأ الحكام ثم تفعل الرعية ، واذا كان على الحكام ان يبدأوا وعلى الرعية ان تفعل من بعدهم فلأن العدالة في حصانة الناس

---

(٢٠٨) ثمار القلوب ص ٦٦

جميعاً . واذا كان الحاكم عليه إثم المظالم فان الرعية تحمل معه إثمه اذا لم تراقبه وتقف له بالمرصاد . واذا لم تفعل الرعية ولم تحاسب الولاة أخطأت الرأي وأصيبت بالحرمان . بل رأى عمر ان الرعية التي لا تراقب الحاكم ولا تحاسبه مستحقة للعقوبة اذا لم تنكر المعصية وترفض الظلم .

قال عمر : ان الله لا يؤاخذ العامة بعمل الخاصة ، فاذا ظهرت المعاصي فلم تنكَر استحقوا العقوبة [٢٠٩] ، وقد خطب يفطّن الرعية الى حقوقها فقال : أيها الناس ، لا يبعدنّ عليكم ولا يطولنّ يوم القيامة ، فان من وافته منيته فقد قامت قيامته ، لا يستطيع أن يزيد من حسن ولا يعتِبَ من سيء . ألا لا سلامة لأمرىء في خلاف السنة . ولا طاعة لمخلوق في معصية الله . ألا وانكم تسمون الهارب من ظلم امامه العاصيَ ، ألا وان أولاهما بالمعصية — الامام الظالم ! [٢١٠]

عبد الملك ابن عمر

وكان حب العدالة والانصاف ركيزة في نفس عمر وميلاً في دمه ورثه من جده ابن الخطاب ، ولكن عوامل اخرى تظاهرت عليه وأحاطت به فقهرته على أن يفعل للعدالة ما لم يفعل لها من قبل . وكان أقوى هذه العوامل التي نشأت حوله ابنه عبد الملك .

وظهر ابنه عبد الملك هذا في هبوب العاصفة فبعث فيها عنفاً

---

(٢٠٩) الخراج لابي يوسف ص ١١

(٢١٠) ابن الجوزي ص ٢٠٤

وقوة ، وكان عبد الملك اعجوبة تاريخ ونادرة فلك . كان ناشئاً لم يجاوز العشرين من عمره ولم يلحق بها ، ولكنه نشأ منـــذ صغره قوي الأيمان كأنه حواريّ لنبي أو أنصـــاريّ لرسول ، فجعل الفتى الزاهد يقتحم على أبيه مجلسه وناديه ومخدع نومه وقيلولته يحثه ويعظه ويوقظه وينبّهه ألا يؤخر مظلمة للناس مخافة أن يُحَمّ الأجل فتسوء المغبة وتلتهب على جسد أبيه النار .

وكان كلما ترفق عمر عُنف عبد الملك ، وكلما دخـل عمر في الأمور على هِينة اقتحمها عبدالملك قوياً مستعجلاً ، وما زال الصبي بأبيه يَزَعه ويدعوه حتى بدا عبد الملك كأنه هو الذي ادخل أباه في العبادة [٢١١] ، وقد شاهد اهل الشام بأعينهم حاليْ عمر قبل الخلافة وبعدها ، فقال بعضهم : كنا نرى أن عمر انما أدخله في العبادة ما رأى من ابنه عبد الملك [٢١٢] .

فحين انصرف عمر من دفن سليمان وردّ القطائع الى بيت المال وسهر في بيع المتاع والبراذين والسرادقات والشوار وتسريـــح الجواري ، وطلع النهار وعمل حتى الظهر وصلى ذهب يتبوأ مقيلا ، فأتاه عبد الملك ابنه فقال : يا أمير المؤمنين ، ماذا تريد أن تصنع ؟ قال : أي بني ، أريد أن أقيل ، قال : تَقَيل ، ولا ترد المظالم ؟ قال : أي بني ، إني قد سهرت البارحة في أمر عمك سليمان ، فاذا قِلتُ قمت فرددت المظالم . قال عبد الملك : يا أمير المؤمنين ، من لك ان تعيش حتى تقوم فتردها ؟ فقال عمر : أي بني ، ادن

---

(٢١١) ابن الجوزي ص ٢٠٨

(٢١٢) صفة الصفوة ج ٢ ص ٧٢ ــ النجوم الزاهرة ج ١ ص ٢٤٣

مني . فدنا منه ابنه فالتزمه وقبّل ما بين عينيه وقال : الحمد لله الذي أخرج من صلبي من يعينني على ديني. ثم خرج ولم يَقِل ولم يستوح ، وأمر مناديه فنادى ألا من كانت له مظلمة فيرفعها ! فجاء رجل ذمّي من أهل حمص قد ابيضت لحيته ورأسه فقال : يا أمير المؤمنين ، أسألك كتاب الله ، إن العباس بن الوليد اغتصبني أرضي — والعباس حاضر — فقال عمر : يا عباس ما تقول ؟

قال عباس : أقطعنيها أمير المؤمنين الوليد ، وكتب لي بها سجلًا ، فقال عمر : ما تقول أيها الذّمي ؟ قال : يا أمير المؤمنين، أسألك كتاب الله عز وجل ! فقال عمر : كتاب الله أحق أن يتبّع ! قم يا عباس فاردد عليه ضيعته . فردها العباس [٢١٣] .

ورأى عبد الملك أباه عمر متردداً يوماً أو كالمتردد فقال له : ما يمنعك أن تمضي لما تريد من العدل ؟ فوالله ما كنت أبالي لو غلت بي وبك القدور في ذلك ! فقال عمر : يا بني ، اني اروض الدنيا رياضة الصعب . اني أريد أن أحيي الامور من العدل فأؤخر ذلك حتى أخرج معه طمعا من طمع الدنيا فينفروا لهذه ويسكنوا لهذه [٢١٤]

ودخل عبدالملك على أبيه يوما وكان عنده عمه مسلمة فطلب الى أبيه أن يخليه به ، فقال له : أسرٌّ دون عمك ؟ قال : نعم ، فقام مسلمة وجلس هو بين يدي أبيه فقال له : يا أمير المؤمنين ، ما أنت قائل لربك غداً اذا سألك فقال : رأيتَ بدعة لم تمتها أو سنة لم تحيها ؟ فقال عمر : يا بني ، أشيء حملك أم رأي رأيته ؟ قال :

---

(٢١٣) صفة الصفوة ج ٢ ص ٦٥

(٢١٤) ابن الجوزي ص ٧١

لا والله، ولكن رأي رأيته من قبل نفسي، عرفتُ أنك مسئول فما أنت قائل؟ قال أبوه: يرحمك الله يا بني ويجزيك من ولد خيرا، فوالله اني لأرجو أن تكون من الأعوان على الخير. يا بني، ان قومك شدّوا هذا الأمر عقدة عقدة وعروة عروة، ومتى ما أريد مكابرتهم على انتزاع ما في أيديهم لم آمن أن يفتقوا عليّ فتقاً تكثر فيه الدماء. والله لزوال الدنيا أهون عليّ من أن يهراق في سببي محجمة من دم! أو ما ترضى ألا يأتي على أبيك يوم من أيام الدنيا الا وهو يميت فيه بدعة ويحيي فيه سنة، حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين؟ [٢١٥]

ولم يَدَع عبد الملك نصحاء أبيه دون أن يعرف ما يدخلون به عليه من النصح، فلما بلغه ذات مرة أن أباه عرض على مزاحم ما يفعله ببعض المال، وكان ذلك العرض على رؤوس الناس فقال مزاحم: ولَدُك يا أمير المؤمنين أحقّ به! وقال عمر: أدَعُهم لله يا مزاحم! — لما بلغه ذلك أسرع الى مزاحم فلقيه فقال له: بئس وزير الخليفة أنت يا مزاحم! ثم انطلق فاستأذن على أبيه ولم يزل به حتى دفع ذلك المال الى بيت المال، وحذره من وزراء السوء [٢١٦]

ولم يزل عبد الملك بأبيه حتى صار لا يبرم أمراً في المظالم دون رأيه. قال ميمون بن مهران: بعث اليّ عمر بن عبد العزيز والى

---

(٢١٥) صفة الصفوة ج٢ ص ٧٢

(٢١٦) ابن الجوزي ص١٠٨

مكحول والى ابي قِلابة [٢١٧] فقال : ما ترون في هـذه الأموال التي أخذت من الناس ظلماً ؟ فقال مكحول يومئذ قولاً ضعيفـاً كرهه عمر : قال : أرى أن تستأنف . فنظر عمر اليّ كالمستغيث بي ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، ابعث الى عبد الملك فأحضره فأنه ليس بدون من رأيت — وكان عبد الملك قـد تفقه ودرس حتى صار في الصف الأول من فقهاء الشام ثم زهـد — قال ميمون : فقال عمر : يا حارث ، ادْعُ لي عبد الملك ، فلمـا دخل عليه قال له : يا عبد الملك ، ما ترى في هذه الأموال التي أخـــذت من الناس ظلما وقد حضروا يطلبونها وقد عرفنا مواضعها ؟ قـال : أرى أن تردها فان لم تفعل كنتَ شريكاً لمن أخذها [٢١٨]

ومن أعجب أمور عبد الملك أنـه كان أملك لنفسه وهو صبي من أبيه وهو خليفة قد دخل في السنّ والكهولة . قالوا : غضب عمر يوما فاشتد غضبه ، فلما سكن قال له ابنه : يا أمير المؤمنين ، في قدر نعمة الله عندك وموضعك الذي وضعـــك الله به ، وما ولاك من أمر عباده — أن يبلغ بك الغضب ما أرى ! قال عمر : كيف قلت ؟ فأعاد عبد الملك كلامه ، فقال له عمر : أما تغضب أنت يا عبد الملك؟قال: ما يغني عني جوفي ان لم أردّ الغضب فيه حتى لا يظهر منه شيء ؟

هذا الولد الخيّر البار ما زال يذيب بدنه الزهد ويضنيه حتى ذبل وذوَى ، ثم مرض مرضة الموت ، ولم يبلغ التاسعـة عشرة

---

(٢١٧) مكحول : فقيه الشام تابعي دمشقي، وأبو قلابة(ككتابة) تابعي.
(٢١٨) ابن الجوزي ص ١٠٥

من عمره ففرح لأنه يوشك ان يقضي ! ودخل عليه أبوه يعوده — وكان يحبه حباً جماً — فقال له : كيف تجـــدك يا بني ؟ فكتم عبدالملك ما به مخافة أن يحزن أبوه فقال : أجدني صالحاً . ولكن الأمر لم يغب عن عمر وكان يعلم استبشار ابنه بالموت فقال له : اصدقني عن نفسك يابني ، فان أحب الأمور اليّ فيـــك لموضع القضاء ، فقال عبدالملك : أجدني في الموت فاحتسبني ! فثواب الله خير لك مني ! فحطم الولد قلب ابيه ثم مضى عمر وهـو يقول : يابني ، والله لأن تكون في ميزاني أحبّ اليّ من أن أكون في ميزانك ! وذهب يصلي ، فأقبل عليه مزاحم يخبره بموت عبدالملك فخر عمر مغشياً عليه .

كان لعمر أولاد كثر ، كان له من البنين عبدالملك وعبدالعزيز وعبدالله وابراهيم واسحق ويعقوب وبكر وموسى والوليـــد وعاصم ويزيد وزيان ، وكان له من البنات أمينة وأم عمـار وأم عبدالله ، ولكن عبدالملك كان أزهدهم نفساً ، وأجرأهم على أبيه وكان عينهم ٢١٩ ، فلما مات وجهزه أبوه ودفنه وسوّى عليه قبره وقف بينه وبين القبلة وأحاط به الناس فقال : يرحمك الله يابنيّ ! فلقد كنت باراً مولوداً وبارّاً ناشئاً ، وما أحبّ أني دعوتـك فأجبتني ، ولا والله ما كنت قطّ مسروراً بك ولا أرجى لحظّي من الله فيك منذ وضعتك في الموضع الذي صيّرك الله اليه ، فغفر الله لك ذنبك ، وجازاك بأحسن عملك ، وتجـاوز عن سيئاتك ، ورحم الله كل شافع شفع لك بخير من حر أو عبد من شاهـــد

(٢١٩) الخراج لأبي يوسف ص ١٧ — صفة الصفوة ج ٢ ص ٧٢

وغائب ذكر وأنثى دعا لك برحمة ! رضينا بقضاء الله وسلمنا بأمره ، والحمد لله رب العالمين .

ثم انصرف عمر عن القبر والناس يترحمون على عبدالملك ، وما زالوا يترحمون عليه الى الابد حتى يدخلوا في دعاء عمر . ولما دخل بيته وفد عليه الناس يعزونه فيه فتجلد لهم عمر وجعل يقول : ان الذي نزل بعبدالملك لم نزل نعرفه ، فلما وقع لم ننكره ! [٢٢٠]

عزيمة صادقة

ولم يمت عبد الملك بن عمر حتى احتدم أتون أبيه بالبغض للمظالم فلم تَعُد لقوة أن تطفئه أو تخمد ناره ، وزحفت قوى الرجل كما تزحف قوى الجيش اللّهام تأكل ما أمامها ولا تشبع ، فعدّها المسلمون كأيام أبي بكر حين حارب أهل الردة فقال الناس : أفضل الخلفاء أبو بكر يوم الردة وعمر بن عبد العزيز في رد مظالم بني أمية [٢٢١] . وكان أول من اوقد غضب عمر مزاحم بن ابي مزاحم مولاه وآخر من أشعله عبد الملك ابنه ، ولم يَصِر لعمر ان يَكُفّ حتى بات يوصي حرّاسه بأن يَزَعوه لو مال ويبصّروه لو اخطأ ، وكان مما قاله لعمر بن مهاجر رئيس حراسه : اذا رأيتني ملتُ عن الحق فضع يَدَك في تلبابي ثم هُزني ثم قل: ياعمر ما تصنع ؟ [٢٢٢] . ومضى عمر على الحق ، ولو رآه عمر بن مهاجر

---

(٢٢٠) البيان والتبيين ج ٢ ص ١٨١ — لعقد الفريد ج ٤ ص ٤٣٨ — ابن عبدالحكم ص ١١٦ — صفة الصفوة ج ٢ ص ٧٣

(٢٢١) النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٢٧٥

(٢٢٢) صفة الصفوة ج ٢ ص ٦٩

قد مال لما تركه دون ان يأخذ بتلابيبه !

المزوق والمكسب

والعـــلم والفقه ، والذوق الأدبي والفنائي — كل اولئك أربى في عمر احساسه وأرهفه — ففزع للمظالم التي اصابت الناس ، ولم يكن لرجل بلغ درجة الاجتهاد أن يقف من المظالم موقف من لا يعلمها ولا يتأثر بها. ولئن وقف بعض الفقهاء يُفتون ضد المظالم فحسب لأنهم لا يملكون لها ردّا ، فان عمر حين جمع في برديه نفس الفقيه ونفس الحاكم المسؤول كان لابدّ له أن يردّ. ثم لم يكن لرجل رقّ ذوقه ونبغ فنه حتى صنع الألحان ليطابق بها مافي نفسه من معان سامية . ما كان له ألا يحسّ المظالم من حوله ! ولكن عمر — مع ذلك كله — ظل طويلا لا يدري غير الفقه الأصغر الذي يعرف الناس به المسائل والقضايا والأحكام ، ثم يتصدرون بمعرفتهم لفتيا الناس فيما يلتبس عليهم ، وليس لهذا الفقه من قيمة حتى لو سبق به صاحبه آراء الفقهاء والعلماء مـــا لم يخفق القلب به خفقان الشاعر أو القديس وتعمل النفس له عمل الأنصار والحواريين !

أصحاب عمر

وصحبة الناس حظ وقدر وتنقية واختيار . وقد رزق الله عمر رجالا أعانوه على النهج وطبّعوه حتى تطبّع . وجدهم أبدا حوله وفي طريقه ، ووجدهم في المدينة وفي مصر والشام . وجدهم في الطفولة والشباب والصبا والكهولة ، واستجابت نفسه لهم واستجابوا له فتبادلوا تجارة المعروف ، وكانت أقرب حلقة أحاطت به حلقة

مزاحم مولاه وسهل أخيه وعبد الملك ابنه ، وظلت هذه الحلقة تضيق عليه حتى بدت كأنها انفرجت بموت هؤلاء جميعاً ، ولكنه ظلّ طول حياته حبيساً فيها كأنهم أحياء .

وقد إشترط عمر للصحبة شروطا هنّ سبيل الخير كله : قال عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي : قال عمر لجلسائه : من صحبني منكم فليصحبني بخمس خصال : يدلني من العدل الى ما لا اهتدي اليه . ويكون لي على الخير عونا . ويبلغني حاجة من لا يستطيع ابلاغها . ولا يغتاب عندي احدا . ويؤدي الأمانة التي حملها بيني وبين الناس . فاذا كان ذلك فحيّهلا ! والا فقد خرج من صحبتي والدخول عليّ . [٢٢٣]

وما كاد عمر يقول ذلك ويسهر على تنفيذه حتى ربحت سوقه ونفقت تجارته ، فراجت بالاعفاء والنصحاء ، وكان كما قال له ميمون بن مهران : انك سوق وانما يحمل لكل سوق ما ينفق فيها [٢٢٤] .

وقد أحسن عمر في استشارة النصحاء ففي استشارتهم حصافة وهداية ، فان المرء مهما كان حصيفاً متمكناً فانه اذا انفرد لذاته وتعقّب غاية منافعه ضل وافتضح أو قصر فأخطأ ، وذلك لأن محبة الانسان ذاته وتخوفه عليها من خطأ ينسب اليها يعرض له الدهشة والحيرة وذلك اذا لم يمل مع الهوى ، فالرجل المميز الفاضل لا يأمن أن يكون رأيه لنفسه من قبيل الهوى دون العقل فيضطرب

---

(٢٢٣) ابن الجوزي ص ٦٠

(٢٢٤) ابن الجوزي ص ٧١ ــ رياض النفوس ج ١ ص ٩٩

فكره ولا يصح رأيه لنفسه، وأما اذا كان رأيه لغيره فهو سليم من الحالين معاً فلذلك يأتي بالرأي الصحيح السليم [٢٢٥] .

ومن أبرز الرجال الذين صاحبهم عمر بالمدينة عبيدالله بن عتبة، وكان ابن عتبة كثيراً ما ينشده قول القائل :

أبِنْ لي فكن مثلي أو ابتغ صاحبا كمثلك اني مبتغ صاحبا مثلي
عزيز اخائي لا ينـــال مودتي من القوم إلاّ مسلمٌ كامل العقل
وما يلبث الاخوان ان يتفرقوا اذا لم يؤلف روح شكل الى شكل

وكان ابن عتبة قد مات ولكن بقي منه في نفسه حبٌ كثير فكان يقول : لأن يكون لي مجلس من عبيـد الله أحب إلي من الدنيا وما فيها ، ويقول : والله اني لأشتري ليلة من ليالي عبيدالله بالف دينار من بيت المال ! فقالوا : يا امير المؤمنين ، تقول هذا مع تحريك وشدة تحفظك ؟ فقال : اين يذهب بكم ! والله اني لأعود برأيه وبنصيحته وبهـــدايته على بيت مـــال المسلمين بألوف وألوف ! [٢٢٦]

ومن اصحابه محمد بن كعب القرظي المدني الكوفي الورع ، كان رقيق الحسّ كبير القدر ثقة موصوفاً بالعلم والصلاح [٢٢٧] ، وكان من أصحابه بالمدينة ثم حدث بينهما الجفاء ، فلما كان عمر خليفة وزهد ساوره الندم على ما فعله بابن كعب يوم قال له : يابن كعب، لا تكن كالسراج يضيء للناس ويحرق نفسه ، ولم يلبث عمر حين

---

(٢٢٥) انظر الهوامل والشوامل ص ١٤٤
(٢٢٦) عيون الاخبار ج ٣ ص ٧ – وفيات الاعيان ج ٢ ص ٣٠٠
(٢٢٧) شذرات الذهب ج ١ ص ١٣٦

ندم أن ارسل اليه يحمله الى الشام فأخبر انه خرج للغزو ، فكتب الى عامله على الدروب ان يجهزه ويسرحه . فلما سُرح القرظيّ توجه الى عمر فجاءه على كره من بني أُمية ، لانهم كانوا قد كرهوا أن يدخل الشام عليهم أهلُ البلاغة والحجة من اهل الحجاز لئلا يفسدوا عليهم أهل الشام .

ودخل القرظي على عمر فرآه على هيئة لم يكن عهده عليها فقال له عمر : يا بن كعب ، استغفر لي من سوء مردودي عليك حين وعظتني بالمدينة ، فقال القرظي : غفر الله لك ياامير المؤمنين وأقالك عثرتك ! ثم جعل يكثر اللحظ الى عمر ويقلب فيه بصره فقال عمر : فيم تنظر الي يا بن كعب ؟ قال : انظر واتعجب فأقول : أين ذاك اللون النضير والشعرة الحسنة والبدن الريان ؟ فقال عمر : لو رأيتني بعد ثلاث من دفني كنت أشد نكرة لي منك اليوم !

وقد قعد القرظي لعمر مقعد المؤدب المترصد فكان له معه تاريخ واخبار . وقد لحظ القرظي التفاوت في طباع عمر وصفاته وأدرك نزعات نفسه ؛ فجعل يمسك بميزانه ويرجح فيه الخير على المنفعة ويغلّب فيه الحق على الزيف حتى استقاد له واستقام في يده .

كان القرظي يقول لعمر : إن فيك عقلًا وان فيك جهلًا ، فداوِ بعض ما فيك ببعض . وآخ من الاخوان من كان ذا معلاة في الدين ونية في الحق . ولا تؤاخ منهم من تكون منزلتك عنده على قدر حاجته اليك ، فاذا قضى حاجته منك ذهب ما بينك وبينه . واذا غرست غراساً من المعروف فلا تبغين ان

تحسُنَ تربيته ! [٢٢٨]

وقدم على عمر في دمشق – عندما قدم القرظيّ – وفودُ البلدان للتهنئة بالخلافة ، وكان اول وفد دخل وفد اهل الحجاز ، وكان الحجاز اكثر بلد سروراً بتوليته ، فاشرأب من الوفد غلام يريد الكلام ، فنظر اليه عمر فاستصغره فقال له : ليتكلم من هو اسنّ منك ! فقال الغلام : يا امير المؤمنين ، انما المرء بأصغريه : قلبه ولسانه ،فاذا منح الله العبد لساناً لافظاً وقلباً حافظاً فقدأجاد له الاختيار واستحق الكلام! ولو ان الأمور بالسنّ لكان ها هنا من هو أحق بمجلسك منك ! فقال عمر : صدقت ! تكلم ايها الغلام فهذا السحر الحلال ! فقال الغلام : يا أمير المؤمنين ،نحن وفد التهنئة لا وفد المزرئة [٢٢٩] ، ولم تقدمنا اليك رغبة ولا رهبة ، لأنا قد أمنّا في أيامك ما خفنا وأدركنا ما طلبنا ! ثم قعد الغلام على دهشة من الخليفة الذي سأل عن سنّ الغلام فقيل له : عشرسنين .

واهتز عمر لقول الغلام وأخذه الطرب ، وكادت تميل به زهوة ، ورأى القرظيّ ما مال بعمر وهزه ونظر في وجهه قد تهلل وأضاء لمّا أثنى عليه الغلام ، فهمّ القرظيّ يكسر الزهوة ويُسكّن الطرب فقال : يا أمير المؤمنين ، لا يغلبنّ جهلُ القوم بك معرفتَك نفسك ، فان قوماً خدعهم الثناء وغرهم الشكر فزلت اقدامهم فهوَوْا في النار . أعاذك الله أن تكون منهم ، وألحقك بسالف هذه الامة ! فتغيّر لون عمر وانكسرت زهوته

---

(٢٢٨) عيون الاخبار ج ٣ ص ٤

(٢٢٩) المزرئة : طلب العطاء

ودمعت عيناه ، ونظر الى القرظيّ فاذا المهابة تجلله والحق يعلوه فقال : اللهم لا تخلنا من واعظ ! [٢٣٠]

وفطن الخطباء بعدُ لما يجب أن يقال لعمر ، فوفد عليه عبدالله ابن الأهتم وخطب بين يديه فقال: انك ياعمر ابن الدنيا ، ولدتك ملوكها والقمتك ثديها ، فلما وليتَها ألغيتَها ، وأحببت لقاء الله وما عنده . فالحمد لله الذي جلا بك حوبتنا و كشف بك كربتنا. امضِ ولا تلتفت ، فانه لا يغني عن الحق شيء ! [٢٣١]

واتعظ عمر بابن خاله سالم بن عبدالله بن عمر ورجاء بن حيْوة سيّد أهل الشام في أنفسهم . ويقولون ان رجاء واحدٌ من ثلاثة لم يرَ الناس مثلهم ، و كأنهم التقـــوا فتواصَوْا : ابن سيرين بالعراق والقاسم بن محمد بالحجاز ورجاء بن حيـوة بالشام [٢٣٢] . وكان من أصحابه الزهاد البلغاء زياد بن ابي زياد ، قال له عمـــر يوماً : يا زياد ، اني اخاف الله مما دخلتُ فيه ! فقال زياد : لست أخاف عليك من أن تخاف ، وانما أخاف عليك ألا تخاف ! وكان منهم الحسن البصري وله اليه اخلص المواعظ وأبلغها [٢٣٣] .

وكان هؤلاء الرجال وأمثالهم قد بحت اصواتهم في وعـظ الخلفاء والعمال فلم يسمعوا ولم يعوا . كانوا يفزعـون للدماء تراق وللمال ينهب وللأرض تنتزع ، وكانوا كلهم من الفقهاء البلغـاء ،

---

(٢٣٠) زهر الآداب ج ١ ص ٤٠ ط ٢

(٢٣١) العقد الفريد ج ٤ ص ٩٩

(٢٣٢) النجوم الزاهرة ج ١ ص ٢٧١

(٢٣٣) البيان والتبيين ج ٣ ص ٦٦ ، ٧١

زهّدوه في الدنيا ، وخوفوه المال والدم . وقد جرأه سالم ابن خاله على عزل الظلمة من الولاة . وكتب اليه عمر يسأله ان يكتب اليه بسيرة عمر بن الخطاب فكتب اليه سالم يقول : ثم انك كتبتَ اليَّ تسأل ان ابعث اليك بكتب عمر بن الخطاب وسيرته وقضائه بين المسلمين واهل الذمة ، وان عمر – رحمه الله – عمل في زمان غير زمانك ، وانا ارجو ان عملت بمثل ما عمل به ان تكون عند الله افضل منزلة ! [٢٣٤]

●

ولم يجعل عمر يكتفي بصحبه الأقربين ، ولكنه جعل يرسل الى البعداء عن المكان والقربى يسألهم في امره او بعضه ، لعله يجد عند احدهم ما لم يجد عند صحبه الأقربين ، او لعل احداً من المقربين عنده اخفى عنه الحقّ الذي لا يهاب اظهاره البعيد . وكان عمر يعرف فساد الزمان وان العلماء قد خافوا فلم ينطقوا ، وان الجهلاء اقاموا على جهلهم فلم يسألوا . وقد كتب عمر الى رجل من بقية اهل الشام يذكر له ما ابتلي به ويشكو اليه قلة الاعوان على الخير ويسأله معونته برأيه فكتب اليه الرجل : بلغني كتاب امير المؤمنين ، يذكر فيه ما ابتلي به من امور المسلمين وقلة الاعوان على الخير ويطلب مني المعاونة . واعلمْ انك انما اصبحتَ في خَلَق بالٍ ورسم دارس . خاف العالم فلم ينطق وجهل الجاهل فلم يسأل . وتسألني المعاونة فيما انعم الله علي ؟ فلا تكوننّ ظهيراً

---

(٢٣٤) ابن الجوزي ص ١٣١

للمجرمين ![٢٣٥]

وقد ادرك مسلمة بن عبد الملك ان الله ينصر بمثل هؤلاء الأصحاب وينزل بهم الغيث متى اشاروا ، ولن يهلك ملك او رئيس واصحابه مثل هؤلاء ! ولقد تأثر عمر بهم منذ صغره فاتخذ من نفسه - حين قدر - نصيحاً للناس، وخص الخلفاء قبله بكثير من مواعظه ووصاياه ، وطالما حضهم على ترك المظالم ، وكانوا اذا اصابتهم شدة فزعوا اليه .

وقرّب عمر العلماء اليه وابعد غيرهم من الناس ، وكان الناس من غير العلماء يجتمعون على الخلفاء قبله ، فلما جاء عمر تفرق هؤلاء وابعدهم عمر عنه ، حتى انهم كلموه في رجل كان يصاحبه ثم جافاه فلم يعد يقربه فقال عمر : تركناه كما تركنا الخزّ والوشي ![٢٣٦] . وحسناً فعل عمر فان بلية الملوك والناس تأتي من اصحابهم على الدنيا وعلى مظالم الناس .

وحفلت سوق عمر بالمواعظ فأصبحت لا تحصى مواعظ العلماء والفقهاء والزهاد له نثاراً وشعراء :

قال له الحسن البصريّ : واعلم يا امير المؤمنين ان التفكر يدعو الى الخير والعمل به ، وان الندم على الشرّ يدعو الى تركه .

وقال محمد بن كعب القرظي : اتق الله يا امير المؤمنين ، وافتح الأبواب وسَهِّل الحجاب وردّ الظالم وانصر المظلوم .

وقال سالم بن عبدالله : وإنه كان قبلك رجال عملوا ما عملوا ،

---

(٢٣٥) الخراج لابي يوسف ص ١١٤

(٢٣٦) ابن الجوزي ص ٧٤

واماتوا ما اماتوا من الحق ، واحيَوْا ما احيوا من الباطل حتى ولد فيه رجال ونشأوا فيه وظنوا انه السنة ، ولم يسدّوا على العباد باب رخاء إلا فتح الله عليهم باب بلاء ، فان استطعت ان تفتح عليهم ابواب الرخاء فانك لا تفتح منها باباً إلا سُدّ عليك باب بلاء ! ٢٣٧

وقال عمر لزياد بن ابي زياد : يا زياد ، الا ترى ما ابتليت به؟ فقال : يا امير المؤمنين ، لا تُعْمل نفسك في الوصف ، وأعْملها في المخرج مما وقعتَ فيه !

وقال زياد : يا امير المؤمنين ، اخبرني عن رجل له خصم الدّ؟ ما حاله ؟ فقال عمر : سيء الحال ! قال زياد : فان كانا خصمين ألدّين ؟ فقال عمر : ذاك اسوأ لحاله ! قال زياد : فان كانوا ثلاثة ؟ فقال عمر : ذاك حين لا يهنيه عيش ! فقال زياد : فوالله يا امير المؤمنين ما احدٌ من امة محمد إلاّ وهو خصمٌ لك ! فبكى عمر حتى تمنى زياد الا يكون قد قال له ما قال ٢٣٨.

الفقه الاكبر

وفي الحق ان عمر كان عنده من الفقه والبلاغة والموعظة اكثر من هؤلاء او مثلهم ، ولكنه لم يكن قد انتفع به كما انتفع بالقناعة وكف الأذى ، ولما علمها نسي الفقه الذي كان يعلم وتعلّم الفقه الأكبر. وقد حدث عنه ميمون بن مهران انه قال : خرجت

---

(٢٣٧) ابن الجوزي ص ١٣٠

(٢٣٨) ابن الجوزي ص ١٣٩

من المدينة وما أحد اعلم مني ، فلما قدمت الشام نسيت [٢٣٩] . وقد نسي لأنه رأى اثر القناعة في نفسه ورأى كيف فعل كف الأذى فجعلها فقهه الجديد ، ولما علمه وايقن من نفعه صار يعلمه للناس . دخل عليه غلام يقال له حريث بن عثمان مع ابيه ، فسأل عمر ابا الغلام قائلًا له : ماذا تعلمه ؟ قال : الفقه ، فقال عمر : علمه الفقه الأكبر ، قال : وما الفقه الأكبر يا امير المؤمنين ؟ قال : القناعة وكف الأذى [٢٤٠]

شروط العامل

ولم يأت عمر الخلافة غافلًا قد جهل الأمور ، ولكنه اتاها على قدر ومعرفة ، قد خبرها عن قرب وعرف كل احوالها ، وأعدّ لكل داء دواء ، ولم يدع الأمور تجري على سجيتها . وقد رأى منذ بدأ يحكم ان يستعين صلحاء العمال ويستمع لمشورة الناس فيهم . وكان لا يولي الرجل حتى يختبره ظاهراً وباطناً ، فاذا اطمأن له بعد الاختبار ولاه عاملًا او على الخراج والصدقات او قاضياً او قاصاً او صاحب بريد او حرسياً او معلماً او قائداً او سيافاً او على الخاتم او كاتباً . وكل اولئك وغيرهم اختارهم عمر من اولي القسوة في العدالة والرفق بالرعية — وهما امران لا يتعارضان — وقد ضمن باختبار الرجال واختيارهم ان يضع الرجل في العمل الذي يصلح له وينتفع الناس به .

وقد وجّه عمر حين استخلف اول إنذار للعمال والولاة في

---

(٢٣٩) تذكرة الحفاظ ج ١ ص ١١٣

(٢٤٠) ابن الجوزي ص ٢٣٩

تاريخ المسلمين بقوله : ايها الناس ، والله ما سألت الله هذا الأمر قط في سر ولا علانية ، فمن كان كارهاً لشيء مما وليته فالآن ! ودهش الناس لما قال فانذر ، وقال رجل من القوم : سبحان الله ، وليها ابو بكر وعمر وعثمان وعلي ولم يقولوا هذا وقاله عمر ! [٢٤١]

اما قبل عمر بن عبدالعزيز فكان الحكام يُختارون ممن يقدرون على إيقاع المظالم ، حتى اصيب العالم الاسلامي بنكسة خلقية ظل يتقلب فيها زمانا ، ثم اصبح العلم والمعرفة — وليس غيرهما — سبباً لوصول الرجل إلى المنصب الرفيع نتيجة تلك النكسة ، وذلك في افضل الاحوال — ولكن عمر رأى ان لابد من شرط آخر يضاف إلى العلم والمعرفة وهو ان يكون العامل قدوة صالحة في نفسه ، او مستعداً لأن يكون قدوة ومثلاً صالحاً .

القضاة والعمال

ورأى انه ينبغي ان يجتمع للقاضي خمس خصال : يكون عالماً بما مضت عليه السنة ، حليماً ، ذا اناة عفيفاً مشاوراً . فأذا اجتمع ذلك في القاضي كان قاضياً ، وان نقص منهن شيء كان وصماً فيه [٢٤٢] . وقد اختار القضاة من هؤلاء فصارت طبقة القضاة في زمانه مضرب المثل في الرأي والورع . اتقنوا معرفة العدالة وحَمُوا عليها وسهروا ولم يكن عمر يولي قاضياً في اقصى الارض الا كما يولي في ادناها اليه ، بل كان يتورع في اختيار القاضي البعيد ، ولا يولي احداً من غير تجريب .

---

(٢٤١) العقد الفريد ج ٤ ص ٤٣٣

(٢٤٢) ابن الجوزي ص ٢٣٨

قالوا لما افضت الخلافة الى سليمان وجّه رجلاً من ثقاته بقبض خراج افريقية، وامر واليها عبدالله بن موسى بن نصير ان يكون جمعُ المال بشهادة عشرة من اهل القيروان يصحبون المال حتى يصل اليه في دمشق ويشهدون عنده انه أُخذ من وجهه ، فلما وصلوا بالمال الى سليمان قال لهم : اوَخذ هذا المال من وجهه ؟ فقالوا : نعم يا امير المؤمنين . ثم جعل يسألهم فيجيبونه، وبينهم رجل لم يتكلم قط .

وحضر عمر ذلك المجلس ورأى ما حدث فلما انصرفوا سأل عمر عن الرجل الذي لم يتكلم قط فقالوا : انه عبد الله بن المغيرة، وذكروا له دينه وفضله وورعه ، وأخبروه انه إنما منعه من الكلام خوفه الا يتكلم إلا بحق . فحفظ عمر ذلك لابن المغيرة ، فلما افضت الخلافة اليه ولاه قضاء افريقية . وتقلده ابن المغيرة لورعه وثقته في نفسه ثم لعلمه ومعرفته. [٢٤٣] وكما رأى في ابن المغيرة فولاه، ولى السمح بن مالك الخولاني على الاندلس وقد كان راى منه امانة وديانة عند الوليد بن عبد الملك [٢٤٤]

بلال بن ابي بردة

فاذا ساقت المصادفة علماً بأحد لم يزل يستخبر عنه حتى يثق فيه فيوليه ، فاذا لم يستكمل الثقة لم يوله . ولم يكن يقدم والياً او قاضياً على غيره تعصباً له، وإنما يُولي الأفضل ويُقدمه ولو كان من غير اهله او من غير اصحابه او من غير العرب .

---

(٢٤٣) رياض النفوس ج ١ ص ٨٢

(٢٤٤) ابن الاثير ج ٥ ص ٢٦

وكان عمر غير خبّ [٢٤٥] . ولكنّ الخبّ لا يغلبه . وكثيراً ما خاف ان يدخله الغش من مظاهر الرجال ، فجعل يتثبّت ويدسّ على ذوي المظاهر من يأتيه بخاصة اخبارهم ليثق بهم او يزّيفهم . وقد كان عمر اول من زيف بلال بن ابي بردة وكشف خبيئه ، ثم طرده ولم يستعن به ولا بأحد من اهله في عمل له .

وبلال بن ابي بردة الكوفيّ كان رجلًا داهية لقناً اريباً ، وكان كريم المظهر بادي التدّين ، هذا كان مظهره ، اما ماوراءه فنفس ذات ملق وطمع وسرعة إلى الحمق والباطل . وَفدَ هذا الرجل على عمر ابن عبد العزيز بخناصرة فهنأه بالخلافة قائلًا : من كانت الخلافة يا امير المؤمنين شرّفته فأنت شرفتها ، ومن كانت زانته فقد زنتها ، وانت والله كما قال مالك بن اسماء :

وتزيدين طيّب الطيّب طيباً إن تمسّين ، أين مثلك أينـــا
وإذا الدّر زان حسن وجوه كان للدر حسنُ وجهك زينا

فشكر له عمر ثم خرج من عنده فلزم المسجد ولصق بسارية منه ، فجعل يصلي اليها ويديم الصلاة ، فقال عمر للعلاء بن المغيرة ابن البدار : إن يكن سرّ هذا كعلانيته فهو رجلُ أهل العراق غير مدافع . فقال العلاء : انا آتيك بخبره . فأتاه وهو يصلي بين المغرب والعشاء فقال : اشفع صلاتك فان لي اليك حاجة ، ففعل ، فقال له العلاء : قد عرفتَ حالي عند أمير المؤمنين ! فان أنا أشرت بك على ولاية العراق فما تجعل لي ؟ قال بلال : لك عمالتي سنة ! — وكان مبلغها ألف ألف درهم — قال : فاكتب لي بذلك .

---

(٢٤٥) الخب : الماكر المخادع .

فانقلب بلال مسرعاً إلى منزله فأتى بدواة وصحيفة فكتب له بذلك ، فأتى العلاءُ بالكتاب إلى عمر ، فلما رآه كتب إلى واليه على الكوفة : « أما بعد، فان بلالاً غرنا بالله فكدنا نغتر ،فسبكناه فوجدناه خبثاً كله . والسلام » [٢٤٦]

وقد أبى عمر أن تجوز عليه حيل الدجالين وطرق المحتالين ، فجعل كلما بلغته حيلة دجال وخرافة محتـــال يتقصى أحواله لئلا يصاب الناس بجهالته، وقد حدث أنْ قدم إليه رجل من خراسان فقال له : يا أمير المؤمنين ، إني رأيت في منامي قائلًا يقول : إذا ولي الأشج من بني أمية يملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً ، فوليَ الوليد فسألت عنه فقيل لي : ليس بأشج ، ثم ولي سليمان فكان مثل الوليد ، ثم وليت أنت فكنته ! فقال عمر للرجل : تقرأ كتاب الله ؟ قال الرجل : نعم ، فقال عمر : فبالذي انعم بـــه عليك أحقٌ ما أخبرتني ؟ قال : نعم . فأمره عمر أن يقيم في دار الضيافة ، فأقام نحواً من شهرين ، ثم أرسل إليه عمر فقال : هل تدري لم احتبسناك ؟ قال : لا ، قال : أرسلتُ إلى بلدك لنسأل عنك ، فاذا ثناء صديقك وعدوّك عليك سواء . فانصرف راشداً.

وكما لم يجز الدجل عنده لم يجز الخلط والسفه ، وقد حدث أن كتب إليه أحد عماله يقول : إنا أتينا بساحرة فألقيناها في المـاء فطفت عليـــه فما ترى فيها ؟ فكتب إليه عمر يقول : لسنـا من الماء في شيء ! إن قامت عليها بينة وإلا خلِّ سبيلها ! [٢٤٧]

---

(٢٤٦) الكامل للمبرد ج ١ ص ٢٦٨

(٢٤٧) العقد الفريد ج ٤ ص ٤٣٣ ، ٤٣٧

لقد وثق عمر أنه لا يستطيع وحده أن يسوس الأرض ، بل لم يكن يجهل أنه مهما تحرى العدالة فانه لا يستطيع الوصول في العدل إلى حدّ من النزاهة لا يستقر عنده خطأ ، فلم يقنع بما يرسمه لنفسه ولقضاته من مظاهر العدالة ومفاهيمها ، وراح يسأل عنها عارفيها وخبراءَها ويلحّ على نفسه بالصورة بعد الصورة حتى يثبتها في نفسه واضحة بارزة ملمومة الأطراف غير غائبة ، وقد استوصف ابنَ كعب العدلَ فقال : يا بن كعب ، صف لي العدل . فقال ابن كعب ، سألتَ عن أمر حسن : كن لصغير المسلمين أباً ولكبيرهم ابناً وللمثل منهم أخاً ، وعاقب الناس بقدر ذنوبهم على قدر أجسامهم . ولا تضربنّ لغضبك سوطاً واحداً فتتعدى فتكون عند الله من العادين [٢٤٨]

ولم تفترق عند عمر وأصحابه عدالة عن عدالة فالعدالة الحكمية التي هي من عمل القاضي والعدالة الاجتماعية التي هي من عمل الوالي أمران عندهم لا يفترقان ، وكلاهما إن تحقق يسند الآخر ويشدّ من بنيانه ، ولذلك عني بهما معاً وسأل عنهما جميعاً .

وليس واقع العدالة إلا الاحسان الى من يستحق وعقوبة من يستحق وتقدير العقوبة فلا يعاقب مذنب كمذنب ، ثم القصدَ فلا إسراف ولا تقصير ، والعربي والمولى سواء . وكما وصف القرظيّ وفعل عمر تكون العدالة ، أما صياغة العدل في نظريات فلم تكن صنعة فقيه كالقرظيّ ولا صنعة حاكم كعمر بن عبد العزيز !

---

(٢٤٨) ابن الجوزي ص ١١

ومن العدالة درء الحدود بالشبهات ، وهو حكم من مقدساتها لأنه رفق بالناس ان يصيبهم ظلم ونَصَب . وشفقةٌ بالجناة أن يصيبهم إسراف وعنَت . ودرء الحد بالشبهة خير ، حتى لو أخطأ القاضي به موضعَ العدالة . وقد كتب عمر في ذلك لعماله وقضاته فقال : ادرأوا الحدود بالشبهات ما استطعتم ، في كل شبهة ، فان الوالي إذا أخطأ في العفو خيرٌ له من ان يتعدى في العقوبة ! وقد اقتدى في ذلك بجده عمر بن الخطاب .

ما ليس من العدل

وليست العدالة ان يعطى المدّعون دائماً حقوقاً يدعونها ، فقد يدّعون بطلاً وزورا ، وعلى القاضي أن يتفهّم إذا أدْلي اليه لينجو ، ورب مقضيّ له بحق قضي له بقطعة من النار . وقد حكوا أن عمر رد الطامع حين عرف طمعه : قالوا : إنه قدمت بين يديه عنبرة عظيمة بعد موت سليمان ، وكان رجل قد انتظرها حين تعرض ، فلما قدّمت قام يدعيها فقال : عنبرتي يا أمير المؤمنين ! فقال عمر : ما شأنها ؟ قال : بعتها سليمان بن عبدالملك بسبعة آلاف درهم ، وهي خير من ثمانية عشر الفاً .

قال عمر : ويحك ! هل أخافوك ؟ قال : لا ، قال عمر : فهل أكرهوك أو غصبوك ؟ قال : لا ، قال عمر : فماذا ؟ قال : عنبرتي يا أمير المؤمنين ! فأمر عمر به أن يتأخر ، فلا حق له ! [٢٤٩]

تنفيذ الاحكام

ولم يجد عمر نفعاً للعدالة إذا لم تجعل في يد قاضيها قوةً لا

---

(٢٤٩) ابن الجوزي ص ٨٠

تغلّب وقهرٌ لا يكسَر ، ولا بد أن يكون القضاء فوق كل شيء حتى الملك ، والقضاء أمر مقدس كأنه يَدُ الله ، ولم يَبْرم عمر حين جاءه مصري من حلوان يقول إن أباه عبدالعزيز اغتصب ضيعته في إبان ولايته على مصر ، وعنّف المصريّ على عمر فلان له وقال : نازعني منازعة كريمة ، ولا تشتم عرضي ، فان لي فيه شركاء ، إخوة وأخوات ، وهؤلاء لا يرضوْن ان أردّ لك الضيعة بغير القضاء ، والرأي ان تذهب الى القاضي .

واستمع القاضي للمتخاصمين فقضى للمصري فقال عمر : قد أنفقنا عليها الف الف درهم ! فنظر القاضي فاذا عمر وأهله قد أخذوا من غلتها بقدر ما أنفقوا ، فقال : قد أخذتم منها بقدر ما أنفقتم عليها فردوها لصاحبها ! فقال عمر : بارك الله عليك أيها القاضي ، وقام فردّ الأرض للمصري [٢٥٠]

ولا تتم العدالة الا بتنفيذ الأحكام وقبض الحقوق ، فاذا قضي لصاحب حق ولم يقبض حقه ظل الظلم واقعاً والحق ضائعاً ، وبين هذين يظل الحاكم الأول مسئولاً ملوماً . وقد فطن عمر لذلك كله فوقع بذات يده على رقعة رجل يتظلم من ابنه فكتب : إن لم أنصفك منه فأنا ظلمتك ! [٢٥١]

ولم ير عمر من بأس في أن تُنفَّذَ الأحكام في خفة وملاينة وإقناع بالخطأ دون أن يستأني لتلاك أوراق القضايا وتمضي عليها السنون ، ولم تعجب عبدَ الملك بن عمر — في أول الأمر — هذه

---

(٢٥٠) المرشد ج ٤ ص ١٢٩

(٢٥١) العقد الفريد ج ٤ ص ٢٠٩

الطريقة فاستثار أباه ليمضي ولا يلتفت ، فقال له عمر : يا بني ، إن نفسي مطيتي إن لم أرفق بها لم تبلغني. اني لو أتعبت نفسي واعواني لم يك ذلك إلا قليلا حتى أسقط ويسقطوا... وان الله جل ثناؤه لو أراد أن ينزل القرآن جملة واحدة لأنزله ، ولكنه أنزل الآية والآيتين حتى استكن الايمان في قلوبهم . فلو جمعتُ ذلك في يوم واحد خشيتُ انتشاره عليّ ، ولكني انصف الرجل والرجلين فيبلغ ذلك مَنْ وراءه فيكون أنجع له . فان يرد الله اتمام هذا الأمر أتمّه ، وإن تكن الأخرى . فحسبُ عبدٍ أن يعلم الله أنه يحب أن ينصف جميع رعيته ! [٢٥٢]

وانما رأى عمر أن يستعجل القاضي فيحكم متى علم بالمظلمة ووثق من وقوعها. وعِلْمُ القاضي وثقته يغنيان عن الدليل. اما المماحكة في أن ذلك يخالف الفقه فمناصرة للباطل باسم الفقه ومواد القانون ، وكذلك لم تعرض قضية على عمر وكان يعرف تفاصيلها من قبل ويثق بها الا حكم فيها من فوره كما حكم في قضايا ابناء الوليد لمن ظلموهم من أهل حمص [٢٥٣] . وقد قال أبو الزناد : كان عمر بن عبد العزيز يردّ المظالم الى اهلها بغير البينة القاطعة ، وكان يكتفي باليسير ، اذا عرف وجه مظلمة الرجل ردّها عليه ، ولم يكلفه تحقيق البينة ، لما كان يعرف من غشم الولاة قبله على الناس .

ولم يكن عمر يُرْهِقُ الخَصْم ليُقر ، بل يدعه دون ان يؤذيه حتى يقر أو ينكر فيحلف . وقد كتب اليه عدي بن أرطاة

---

(٢٥٢) ابن الجوزي ص ١٠٦

(٢٥٣) حياة الحيوان ج ١ ص ٦٩

يوماً يستأذنه أن يمسّ الناس بشيء من العذاب ليقروا، فكتب اليه عمر : أما بعد فالعجب كل العجب من استئذانك إياي في عذاب البشر ، كأني جُنّة لك من عذاب الله ، وكأن رضاي ينجيك من سخط الله ، فانظر من قامت عليه البينة فخذه بما قامت عليه ، ومن أقرّ فخذه بما أقرّ به ، ومن أنكر فاستحلفه بالله العظيم وخلّ سبيله ، وايم الله لأن يلقَوا الله عز وجل بجناياتهم أحبّ اليّ من ان القى الله بدمائهم . والسلام [٢٥٤]

وكما رأى وجوب الاستعجال في الحكم عند المعرفة رآه واجباً عند ظهور الدليل ، فاذا غاب عن القاضي العلم وغابت عنه الأدلة وجب عليه أن يبحث وراءها حتى تظهر له البينات . فاذا لم تظهر ردّ الأمر الى عمر ليرى رأيه فيه .

وكلّ ذلك الاستعجال كان في كل قضاء ليس فيه حدّ بقطع او قتل ، فاذا كان الحكم في حدّ وجب ألا ينفذ إلا أن يُرفع الى الخليفة ويراجع فيه ، وهو ما كان عمر أشار به على الوليد فأبى ، فلما صار الأمر له عمل بما كان أشار به [٢٥٥]. وفيما عدا ذلك فقد أمر الولاة أن يردوا المظالم دون أن يراجعوه .

وقد كانت الأمور جرت قبل عمر ألاّ ترد المظلمة إذا رُدّت حتى يمر عليها الزمن فتبلى الفرحة بها أو يقع اليأس منهـا ، وما كان أحد يصل اليه حقه حتى ينفد صبره ويموت جلده من طول ما

---

(٢٥٤) ابن عبد الحكم ص ١٢٩ ـ ابن الجوزي ص ٧٩ ، ٨٤ العقد الفريد ج ٤ ص ٤٣٤ ـ الخراج لأبي يوسف ص ١١٩

(٢٥٥) تاريخ الامم الاسلامية ج ٢ ص ١٨٤

يكتب الكاتب للكاتب ، والكاتب للعامل ، والعامل للخليفة . يصعد الأمر من سفل الى علو ، ويرجع فينحدر من علو الى سفل . فلما رأى عمر ذلك ثقل على قلبه المطل والتأجيل . وحدث أن عامله عبدالحميد ابن عبدالرحمن جعل يرادّه في المظالم ويراجعه فيها فكتب اليه عمر : انه يخيل لي أني لو كتبت لك أن تعطي رجلاً شاة لكتبت إليّ : أذكر أم أنثى ؟ ولو كتبت اليك باحدهما لكتبتَ إلي : صغيرة أم كبيرة ؟ ولو كتبتُ باحدهما لكتبتَ : ضائنة ام معز ؟ فاذا كتبتُ اليك فنفذ ، ولا ترد عليَّ . والسلام [٢٥٦]

أنواع المحاكم

ولم يكن لعمر مكان خصصه للتقاضي بين يديه فحيثما انتقل صار قاضياً وفي ظله تسير العدالة ، وقد سمع للشاكين في بيت الامارة وبيته الذي سكن فيه ، وفي المسجد ، وعند أوان الخطبة ، وعلى المنبر ، وفي راحته ، واستجمامه [٢٥٧]

وكان القاضي في عهده - كما كان في العهود الاسلامية - قاضيا منفرداً ، ولم يؤلّف هيئةً للقضاة تحكم مجتمعة ، ولكنه حمى القاضي المنفرد ان يزل مهما انفرد بالحكم ، إذ طلب اليه أن يشاور ذوي العلم ، فلم يَعد بالقاضي المنفرد نقص ، ولا خوف مزلة مهما انفرد ومهما كان الناطقَ وحده بالأحكام .

واذا اطمأن القاضي لرأيه كان عليه أن ينفذ الحكم ، وذلك اذا لم يجد من سابقة تهذيه أو فقه يدله ، وبعد أن يكون قد استشار

---

(٢٥٦) العقد الفريد ج ٤ ص ٤٣٧

(٢٥٧) البيان والتبيين ج ٣ ص ١٧٨

فأعيا ، وعجز المشيرون عن الرأي .

مراقبة العمال

لقد دلّ عمر عماله على الطريق ومدّهم برأيه ، وترك لهم حرية الرأي متى وثقوا من أنفسهم فعدلوا ، وان عندهم من العلم باحوال الناس ما يعينهم على الرأي واختيار أفضله ، وكانت هذه الثقة منه في ولاته وقضاته داعيـة الى ورعهم واجتهادهم في تحري العدالة ، ولكنه مع هذا بات يراقبهم ويبث حولهم الارصاد ويدس عليهم العيون ، وويل لمن جار منهم وظلم ، وويح لمن زل منهم وأخطأ !

وكان التوبيخ واللوم الشديد أول عقاب من عمر يعاقب به الوالي المخطىء ، فاذا لم ينته عزله . ولقد قصر عديّ بن أرطاة ذات مرة وقد استخلفه عمر على الكوفة فأرسل اليـه يقول له : أما بعد ، فانك غررتني بعمامتك السوداء ومجالستك القراء وارسالك العمامة من ورائك ، وأنك اظهرت لي الخير فأحسنت بك الظن . وقد اظهر الله ما كنتم تكتمون . والسلام .

وفعل عمر مع السفراء مثـل الذي فعل مع العمال والقضاة ، فأرسل معهم العيون ليأتوه بما علموا ، وحين وجّه عبدالله بن عبد الأعلى الى ملك الروم وجّه معه رجلًا من عبس ، ثم خلا بالعبسي قبل أن يسير وقال له : احفظ كل ما يكون من ابن عبـد الأعلى ، فلما رجعا خلا بالعبسيّ فاستخبره وحده ما حدث وأخبره [٢٥٨]

ولم يغفل عمر الرأي العام ، ولم يسقط حساب الأمة في حكمها على ولاته وقضاته ، فأشرك الناس جميعاً في الرأي ، وجعل موسم

---

(٢٥٨) الكامل للمبرد ج ١ ص ٣٠٦ – ابن الجوزي ص ١٠٨

الحج مكاناً لعرض اعمالهم وسؤال النـــاس عنهم لتثبيت من يرى تثبيته وعزل من يستحق أن يعزل ، وحتى يقف اهل الموسم على نيته في العدالة ويخبروا من وراءهم من الناس . وقد اجتهد عمر في ذلك وتورع فكاشف عامة الناس بما يريد .

ولم ينس عمر ما كان قاله لسليمان حين فرح بكثرة الحجيج ، لم ينس عمر ذلك مذ قاله لسليمان ، فلما كان خليفة دلف الى الموقف كما كان دلف مع سليمان ، ورأى من الحجيج اكثر مما كان قد رأى معه ، وسدّت التلبيات مسامع الجواء أكثر مما كانت سدّت ، ورجف عمر فتقدم الى الناس يلمهم من الأطراف ويجمعهم ويخطبهم ، فلما قام خطيباً برىء الى الله وأشهده أنه لم يأمر بعدوان ولا ظلم ، ولم يتعمده ولم يرضه ، إلا أن يكون وهماً منه وخطأ ، أو أمراً خفي عليه لم يتعمده ، ورجا الرعية أن تضع عنه كل ذنب ، وتغفر له كل خطيّة ، متى عرفت حرصه واجتهاده .

وقد نادى عمر في الموسم أنه مُعوِّل كل مظلوم ، وأنه لا إذن لمظلوم دونه ، وأنه لا طاعة لعامل رغب عن الحق ولم يعمـــل بالكتاب والسنـــة . ثم نادى عمر بأخطر شيء نودي به في أمور الظلَمَة من الولاة إذ نادى أنه مصيّرٌ أمرَ الوالي الظالم الى الرعية حتى يراجع الحق وهو ذميم - وما تمسّ المخافة قلوب الولاة بأكثر مما تمسّها إذا وكل أمرها للرعية لتأخذ منهم بحقها . وقد علم الناس كيف أخذ أهلُ المدينة هشام بن اسماعيل لما عزله الوليد عن المدينة فمرّ به الناس كل يأخذ منه بحقه ويقتص منه بجرمه .

والرعية لا يهمها من العدل إلا ما يسعدها ، وما تَهُمُّ العدالة

بمعناها الفقهي الا المظلوم ، أما الناس فيفرحون بالعـــدالة لأنهم يعتقدون أنها السعادة والوفرة والغنى ، فإذا لم تقدهم العدالة ميسرة وغنى لم يفتقروا اليها . وقد عرف عمر ذلك فنادى في الموسم : أن مال الفيء مصروف الى أصحاب الحقوق ، وأنه لا دُولة للمال بين الأغنياء دون الفقراء .

ولم يغب عن عمر أن الرعية تهاب أن تشكو ولاتها لأمرين : اما خوفاً منهم واما رهبة السفر ومشقة الطريق ،فدعا عمر قائلًا : وأيما واردٍ ورد في أمر يصلح الله به خاصة أو عامة فله ما بين مائة دينار الى ثلثمائة . وعلى قدر ما نرى من الحسبة وتجشم المشقـة . فرحم الله امرءاً لم يتعاظمه سفر يحيي الله به حقاً لمن وراءه .

وقد رأى عمر الناس وقد انصتوا لقوله وابتهجوا له وكادوا يشتغلون به عن مناسكهم ، ففطن لماحلّ بهم وخاف أن تكون فتنة به ، فلمّ كلامه وبلغ به غايته حين قال : ولولا أن أشغلكم عن مناسككم لرسمتُ لكم أموراً من الحق أحياها الله لكم ، وأموراً من الباطل أماتها الله عنكم ، فـلا تحمدوا غيره . ولو وكلني الى نفسي كنت كغيري [٢٥٩]

ولم يشغل عمر الناس عن المناسك ! فما فُرِض الحج الأكبر الا ليتشاور الناس فيما يصلحهم ، فاذا كانت وجهة كل حاج للبيت أن يطوف ويلبي محبوساً في جلدة جسده فمـا أدى الناسُ الحج ! ولكنّ عمر اقتضب كلامه لأنه رأى الناس يطلبون منه المزيد ثم التفتوا الى التحدث بفضله ، فدعاهم الى وجهتهم وتركهم الى قبلتهم.

(٢٥٩) ابن الجوزي ص ٧٢

ومنذ نودي بعمر خليفة على الناس ودمشق تزدحم بالشاكين جاءوا اليها وقعدوا لعمر كل مقعد ، فلم يكن يخطو او يجلس او يخطب حتى يعترضه معترض بشكوى ، حتى فزع عمر لما يرى . فلما علم ان أكثر هؤلاء قد جاءوا من أقصى الأرض وتحملوا مشقة السفر ولم يجدوا من يحمل عنهم شكواهم رأى ان يردهم الى بلادهم وأن يدفع اليهم بنفقات أسفارهم حتى يصلوا الى ديارهم وحتى لا ينفر أمثالهم أو ينفر من لا تستحق شكواه أن ينفر اليه .

وانتظر عمر الجمعة ثم انتظرها الناس حتى يخرج الى الصلاة ، واذا مسجد دمشق تغص نواحيه بالشاكين من الغرباء فخطبهم عمر وقال : أيها الناس ، اني أنساكم هنا وأذكركم في بلادكم ، فمن أصابته مظلمة من عامله فلا اذن له علي ، ومَنْ لا فلا أرينّه ، وإني والله إنْ منعت نفسي وأهل بيتي هذا المال وضننت به عليكم إني اذن لضنين ! [٢٦١] فسَالَ الناس الى بلدانهم فرحين أن تلحق بهم العدالة في الطريق .

فن جديد

وكان الشعر العربيّ قد أطلق قرائح الشعراء وراء الكذب الفني فتقربوا بالأماديح وازدلفوا بالاغراق في الباطل ليُرْضُوا الخلفاء أو ليهوّنوا عليهم قيمةَ المال فيخفّوا به في حقائبهم باسم الجود والمعروف أو باسم الحق في النهبى كما كان قال الفرزدق لمعاوية:

(٢٦٠) ابن عبد الحكم ص ١٥٢

(٢٦١) ابن الجوزي ص ٥٤ ، ٧١

أبوك وعمي يا معاويَ أورثا تراثاً وأولى بالتراث اقاربه

وما الجود والمعروف ولا النهبى كذلك، ولكن الخلفاء اخطأوا الطريق فردوها جاهلية في العطاء كما ارتدت جاهلية في الخصومات والصراع . وضرب عمر بن الخطاب الخطيئةَ في صميمها ولكنها عادت حية في ظل امية ، ثم ضربها عمر بن عبد العزيز ضربة ثانية فخمدت في مدته ثم عادت من بعده حين ضريَ الباطل لأنه لم يَرَ يداً تضربه كما ضربته ايدي العُمَرين .

وانصرف الشعراء عن باب عمر في دمشق، ولم يكن منصرفهم ليحطّوا الشعر عن كواهلهم وانما ليُرْجعوا اليه الصدق الذي فقده والحق الذي جاوزه ثم يعودوا الى عمر كما يعود الناس ، ولهم اداتهم واسلوبهم يشكون بالصدق ويأكلون بالحق . وهكذا رجع الشعر عن زور المديح وغلو القول ، وترك الشعراء فنوناً من الغزل والواناً من التزويق لأن عمر قال لجرير حين اراد ان ينشده : يا ابا حزرة ، قل ، ولا تقل الا حقاً .

وكذلك جعلت معاني الشعراء تدور في مدارات الزهد والصدق والرضا، وصدّت عن الهجاء وخافت مغبة الشتم .

وعاد جرير نفسه، وهو من استثناه عمر من الشعراء فلقيه يشكو لعمر فقره مرة ، ويشكو له حرمانه من حقه في صدقات الأعراب مرة، وعمر يعطيه نصيب الفقير ويسمع له شكاة المظلوم، ومما قاله جرير يشكو ابن سعد الأزديّ لما تولى صدقات الاعراب وحرم جريراً :

ان عيالي لا فواكه عنـــدهم وعند ابن سعد سكر وزبيب
وقد كان ظني بابن سعد سعادة وما الظن الا مخطىء ومصيب
فان ترجعوا رزقي اليّ فانه متاع ليـــالٍ والأداء قريب

وقال رجل يشكو عمال عمر اليه :

ان الذين أمرتهم أن يعـــدلوا نبذوا كتابك واستحل المحرم
وأردتَ أن يلي الأمانة منهمُ برّ وهيهـــات الأبرّ المسلم
طُلْس الثياب على منابر أرضنا كلٌ بنقص نصيبنا يتكلم [٢٦٢]

ومع أنّ عمال عمر اقتدوا به في العدل فان الناس اخذوا يتهمونهم بالظلم ويشكونهم اليه ، ولم يحدث ذلك الا لان الناس احسوا أن عمر إنما جاءهم ليسعدهم وليدر عليهم الخير والرزق، ولم يدع عمر هذه الشكاوى دون الاهتمام بها وتحقيق العدالة لأهلها متى كانوا مستحقين .

أثر العدالة

أقل ما يحدث من العدالة أن يسعد الناس أو يحسّوا أنهـــم سعدوا وأن يستتب الأمن في الأرجاء . وقـد حدث ان سادت العدالة في مدة عمر وعمّ الأمن وانقطعت ظهور الناس ويئسوا من الظلم ، حتى ان الخوارج حين بلغتهم سيرة عمر وما ردّ من المظالم اجتمعوا وقالوا ما ينبغي لنا ان نقاتل هذا الرجل . ولكن شيئاً هاماً غير هذين هو الذي يجب ان يكون ، وانه لشيء لا يخطر ببال الناس ، فما هو هذا الشيء ؟ هو أن يتخلى القضاة عن مناصبهم

(٢٦٢) الكامل للمبرد ج ١ ص ٤٠١ ، ٤٠٤ وجعلهم بقوله طلس الثياب بمنزلة الذئاب مع اظهارهم التقشف .

كلما ثقل عليهم العبء والا يقبل منصب القضاء احد اذا عرض عليه مخافة ان يزل .

ولقد حدث في مدة عمر بين القضاة هذا الشيء الذي لا يحدث . فقد كانت عمّت العدالة ونشطَ الوعي في يقظة الراعي ومخافة الله ، فجعل القضاة يهربون من أن تسند اليهم مناصب القضاء ، سواء من خشي الله منهم ومن لم يخشه ، لأن القضاة أحسوا بالمسئولية فثقل الأمر عليهم ، أما الخائف من الله فانه استيقظ ليفر من النار ، وأما من لا يهاب فقد خاف عمر وخاف الناس .

وكان ممن كتب الى عمر يستعفيه ميمونُ بن مهران عامله على خراج الجزيرة وقاضيه بها ، فكتب اليه عمر يقول : اني لم أكلفك ما يعنتك . اجتنِ الطيب واقض بما استبان لك من الحق . فاذا التبس عليك أمر فارفعه اليّ ، فلو ان الناس اذا ثقل عليهم أمر تركوه ما قام دين ولا دنيا [٢٦٣]

وشكا اليه عامل سهره وتعبه فكتب اليه : يا أخي ، اذكر سهر أهل النار في النار ، وخلود الآباد فيها ، فان ذلك يطرد بك الى ربك نائماً ويقظان ، واياك أن تزل قدمك عن هذا السبيل فيكون آخر العهد بك ومنقطع الرجاء منك والسلام . فلما قرأ العامل كتابه طوى البلاد حتى قدم عليه ، فقال له عمر : ما أقدمك ؟ قال : خلعتَ قلبي بكتابك ! لا وَلِيت لك ولاية ابداً حتى القى الله سبحانه ! [٢٦٤]

---

(٢٦٣) الخراج لأبي يوسف ص ١١٥ ـ ابن الجوزي ص ٩٧

(٢٦٤) حياة الحيوان ج ١ ص ١٣٥

وكتب عمر الى عديّ بن أرطاة وهو يعمل له على البصرة ليجمع بين اياس بن معاوية والقاسم بن ربيعة الجوشنيّ ويولي القضاء أنفذهما . فجمع بينهما عديّ ، فجعل كل واحد منهما يبرأ من العلم والفقه ويرمي بهما صاحبه ، حتى بلغ الأمر الى الحَلِف كذباً على ذلك لينجوَ كل واحد منهما فلا يسند اليه منصب القضاء .

وقال اياس لعديّ : أيها الرجل ، سل عني وعن القاسم فقيهَيْ البصرة : الحسَن وابنَ سيرين - وكان القاسم يأتيهما وكان اياس لا يأتيهما - فعلم القاسم أنه ان سألهما عنه أشارا به ، فقال لعدي : لا تسأل عني ولا عنه ، فوالله الذي لا اله الا هو ان اياس بن معاوية افقه مني واعلم بالقضاء ! فان كنتُ كاذباً فما ينبغي ان توليني ، وان كنتُ صادقاً فينبغي لك أن تقبل قولي !

ووقع عديّ في حيرة حين ضيَّق عليه القاسم منافذ الطريق بما حلف واقسم ، ولم يبق الا ان يولي اياساً .

ولكن اياساً عرف ان القاسم قد حلف كاذبا وأقسم ليتأخر عن ولاية القضاء ، فقال لعدي : يا عدي ، انك جئت برجل فأوثقته على شفير جهنم فنجى نفسه منها بيمين كاذبة ؛ يستغفر الله منها وينجو مما يخاف !

واضاء النور امام عدي بهذا الكلام ، فقد عرف ان اياساً ادرك ما وراء كلام القاسم ، وعرف الحكم والفقه ، فقال له عدي : يا اياس ، اما اذ فهمتها فأنت لها ! فاستقضاه [٢٦٥]

●

(٢٦٥) قصص العرب ج ١ ص ٣٦٨

انه لا ينتفع بظلم القضاة غير الولاة ، ومتى فتح القاضي باب شر للوالي اطرد له فتح الأبواب ، ولكن الولاة في مدة عمر كان الى جوانبهم قضاة يسدون عليهم كل باب للفتنة فتغير الولاة ، بل كان العامل يزف البشرى للناس اذا تولى قضاء عمالته قاض نزيه . وقد مضى اسماعيل بن عبيد الله الأنصاري والي افريقية الى القيروان يبشر اهلها بعبد الله بن المغيرة قاضياً صاحب علم ومعرفة ودين وورع [٢٦٦] ، ومضى اسماعيل يبشر به فرحاً فخوراً.

•

ولقد تغير مع هؤلاء الولاة كل شيء حتى النقود التي تبودلت في عصره كتبوا عليها بامرٍ منه : امر الله بالوفاء والعدل [٢٦٧]

وربما عادت الطبيعة تعدل وتساعد عمر على عدالته ، حتى النيل اعتدل فيضانه فصار في سنة تسع وتسعين تسعة عشر ذراعاً [٢٦٨] بل انهم ليقولون ان العدل في عهده قد عم حتى بلغ شعاف الجبال ، وبالغ الناس في القول وحدثوا عنه حديثاً عجباً حتى قال مالك ابن دينار : انه لما ولي عمر بن عبد العزيز قالت رعاء الشاء في رؤوس الجبال : من هذا الخليفة الصالح الذي قام على الناس ؟ قال : فقيل لهم : وما علمكم بذلك ؟ قالوا : انه اذا قام خليفـــة صالح كفت الذئاب والأسد عن شائنا ! [٢٦٩]

---

(٢٦٦) رياض النفوس ج ١ ص ٨١

(٢٦٧) ابن الجوزي ص ٨٠

(٢٦٨) النجوم الزاهرة ج ١ ص ٥٤

(٢٦٩) صفة الصفوة ج ٢ ص ٦٧